

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

[ق: ٢٢]

المفاجأة

مجدي الهاللي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنِّ يَا كَرِيمَ

رحلة الحياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه.. أما بعد،

فعندما نجتمع مع أقاربنا ومعارفنا في مناسبة من المناسبات
فإننا نجد فيهم الطفل الصغير، والشيخ الكبير، ونجد كذلك الفتى
والشاب والكهل .. فإذا ما تقابلنا في مناسبة أخرى بعد عِدَّة
سنوات سنجد أن الطفل قد صار فتًى، والفتى قد صار شاباً،
والفتاة تزوجت وأنجبت، وأن هناك من كبار السن من انحنى
ظهره، ومن كلَّ بصره، ومن لا يستطيع المشي إلا مُتَكِنًا على عصا،
ولا نُفَاجَأُ إذا ما أخبرنا بموت أحد هؤلاء الشيوخ .. فأَيُّ دلالة
يحملها يا تُرى هذا المشهد؟!

ألا يدل ذلك على أن هناك حركة نمو تحدث للناس جميعاً؟

وأن الكل مستسلم لها لا يمكنه إيقافها، أو تعطيل مسيرتها؟ وأن هذه الحركة ملازمة لحركة الزمن؟

..نعم، أخي، فكل البشر يتحرك للأمام مع حركة الليل والنهار.

ولكن إلى أين؟؟

إلى النهاية.. إلى الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

فجميع الخلق في شتى بقاع الأرض يتحرك نحو راية واحدة، ويقطعون إليها المسافات بمرور الزمن فكلما مرّت دقيقة اقتربوا أكثر من الراية، سواء كانوا متبهيّن لذلك أو غافلين.. ناسين أو مُتَذَكِّرين، راضين أو معترضين.

هذه الحقيقة لا تحتاج إلى كبير عناء لإثباتها، فيكفيك أن تتأكد من ذلك إذا ما بحثت عن صورك الفوتوغرافية منذ الولادة وحتى قراءة هذه الكلمات، وأن تقوم بترتيب هذه الصور بطريقة تصاعدية في العمر، فستجد أنك تتغير وتنمو وتكبر، فإذا ما تحيّلت نفسك بعد ذلك ورسمت صورة لهيئتك بعد عشرين سنة أو أكثر... فستصل إلى الحقيقة التي تعرفها جيداً: بأن الموت نهاية كل حي.

أخي:

إن رحلة الحياة ماضية في كل لحظة.. ماضية تتحرك للأمام وأنا أكتب هذه الكلمات، ماضية وأنت تقرأها.. فالزمن يمر، والمسافة تقصر، والموت يقترب.

ولكن هل الموت هو نهاية الرحلة أم أنه الراية التي نراها ولا نرى ما بعدها؟!!

إن الموت هو نهاية رحلة الحياة على وجه الأرض، ومن بعده يمر المرء بأحداث جسام يكون فيها لقاء الله - عز وجل - فيحاسبه على ما فعل في هذه الرحلة، فإن كان خيرًا فسيفوز بموعد الله وجائزته التي وعد بها الطائعين، وإن كان شرًا فسيلقى جزاءه الأليم... «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه»^(١).

فحقيقة رحلة الحياة أنها رحلة إلى الله: من عنده بدأت وإليه تنتهي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

إنها رحلة الرجوع إليه سبحانه: ﴿قُلْ يَنفَعُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

(١) جزء من حديث قدسي رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

رحلة العودة والحساب: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

فهل لك أيها الإنسان أن ترفض السير والعودة إلى الله؟! ..
ولكن كيف؟!!

ماذا ستفعل؟! هل ستلجأ لكون آخر؟
يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَىٰ الْمَفْرَٔٔ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ﴾ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۚ (١٢) يُنْبِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَاقِدَمُ وَالْآخِرُ ۚ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٣].

بداية الرحلة:

تبدأ -فعلياً- رحلة السير والرجوع إلى الله عند البلوغ وبدء سن التكليف، وتستمر حتى الموت، ولئن كانت مسافات الرحلة تُقدَّر بالزمن فإن ما يحملنا فيها هي أجسادنا، فالجسد يُعَدُّ بمثابة الدابة أو المركبة التي نستقلها؛ لكي نصل إلى نهاية الرحلة في الدنيا.
لنتخيل -أخي- هذه الرحلة وكأنها تمر بطريق يركب فيه كل فرد دابة، ويسير الجميع في اتجاه واحد نحو راية وهدف محدد.. ألا وهو الموت!!

لو تخيلنا هذا المشهد وتعمقنا فيه، وقمنا بإسقاطه على الواقع فسنرى بعين الخيال مشاهد كثيرة:

.. سنرى مشهداً مألوفاً ومتكرراً: وهو اهتمام الكثيرين بدوابهم على حساب أنفسهم وقلوبهم التي تستقل تلك الدواب .. سنجدهم يبالغون في العناية بدوابهم: بطعامها وشرابها ونظافتها بصورة مبالغ فيها، لدرجة أنهم يميلون أنفسهم ولا يقومون بأداء الأعمال التي طالبهم الله - عز وجل - بها وسيسألهم عنها يوم رجوعهم إليه.

وسنرى مشهداً مثيراً يتمثل في انبهار أكثر السائرين في رحلة الحياة بالزخارف والزينات التي تملأ الطريق، والتوجه الدائم نحوها، والانشغال بها عن كل ما سواها.

ومن المتوقع أن نشاهد تنافساً يؤدي إلى الخصومة والتدابير بين بعض السائرين بسبب رغبة البعض في الاستحواذ على جزء من الطريق والسيطرة عليه .. مع أن الجميع يسير فيه وسيتركه شاء أم أبى.

ومما سنراه كذلك نار الحسد والغيرة تآكل قلوب بعض السائرين كلما ظهر شيء جديد على دواب أقرانهم؛ مع أن الحقيقة تهتف كل يوم بأن الكل سيفارق دابته فور الوصول إلى الراية .. الموت!

مشاهد كثيرة، لك - أخي القارئ - أن تطلق فيها العنان

لفكرك وتُسقطها على الواقع الذي نحياه..

هذا المثال له علاقة كبيرة بحياتنا على هذه الأرض، فنحن في رحلة حقيقية، ولم نوجد في الدنيا لكي نأكل أو نشرب أو نلهو، بل للقيام بمهمة محددة وهي عبادة الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

.. لم نُخلق بلا هدف: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

هذه الرحلة قائمة ومستمرة باستمرار تعاقب الليل والنهار؛ لذلك فإن الواجب يُحْتَمَّ علينا أن يكون جُلَّ اهتمامنا هو تنفيذ ما طلبه منا ربُّنا؛ حتى نفوزَ بجائزته وموعوده، وإن لم نفعل فعاقبة السوء تنتظرنا... قال رسول الله ﷺ: «... كل الناس يَخْدُو فَبَائِعِ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا»^(١).

وقال: «يا كعبُ بنَ عجرة! الناس غاديان؛ فمُبْتَاعِ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا، وبَائِعِ نَفْسِهِ فَمَوْبِقُهَا»^(٢).

(١) رواه مسلم (١/٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢/٣٣٢ برقم: ١٤٤٤١)، وابن حبان (١٠/٣٧٢ برقم: ٤٥١٤)، والحاكم (٤/٤٦٨ برقم: ٨٣٠٢) وصححه، ووافقه الذهبي، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٦ برقم: ١٢٨١).

القطار:

ويمكننا كذلك أن نضرب مثلاً لرحلة الحياة الدنيا بقطار ينطلق في مسار طويل ... يتوقف في محطات .. في كل محطة يصعد إليه أناس ويهبط منه آخرون، ولقد صعدنا إلى هذا القطار في محطة من المحطات، ونرى حولنا الكثير ممن سبقونا ومن أتوا بعدنا .. يهبط بعضهم والبعض الآخر ينتظر ...

وسياتي علينا حتماً وقت نهبط فيه نحن أيضاً.

أخي:

لقد دخلنا الدنيا فوجدنا أناساً حولنا فتعايشنا معهم، وانغمسنا في ملهيات الحياة مثلهم، ولا نشعر بغربة ما نفعله مع أن عشرات الأدلة تترى أمام أعيننا تُبَيِّنُ بأن الدنيا ليست دار مقام، وأنها في رحلة إلى الدار الآخرة بدليل هبوط الكثيرين أمام أعيننا من قطار الحياة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، فلنحاول - أخي - أن نتخيل هذه الرحلة لعل ذلك يكون عوناً - بإذن الله - للخروج من دوامة الدنيا، والانتباه والتشمير لما ينبغي أن نقوم به...

البداية

لئن كانت الأسطر السابقة قد ذكّرنا برحلة الحياة التي نرى بأعيننا مشاهد منها؛ إلا أنها لا تكتمل - بإذن الله - إلا بالتذكير بالبداية الحقيقية لرحلة البشرية جمعاء، وما تحمله هذه البداية من أمور غاية في الأهمية، حيث العهد والميثاق والوعد الذي قطعناه على أنفسنا ووعدنا الله - عز وجل - بتنفيذه.

كيلا تَعْظُمُ مَفاجأتنا بالموت وانكشاف الغطاء:

أخي: لأننا في اختبار حقيقي في الدنيا.. شئنا أم أبينا؛ ولأن نتيجة هذا الاختبار تُحدّد مصيرنا هناك.. في دار الخلد؛ ولأن التعلق بالدنيا ونسيان الآخرة هو أصل الشرور والعائق الأكبر أمام النجاح في هذا الاختبار؛ ولأننا نعيش في غفلة ونسير مع السائرين في الحياة مُنكبّين على الأرض، ولا نكاد نفكر في مصيرنا الحقيقي؛ كان من المناسب أن يتم التذكير بالبداية ... من هناك .. حيث العهد والميثاق مع الله.

العرض والقبول:

... كان مشهدًا عظيمًا ..

عرض الله - عز وجل - الأمانة ... أمانة القيام بالتكاليف، وما يتبعها من ثواب وعقاب.

... عرض تلك الأمانة على السماوات، فأبت!

وعرضها على الأرض، فأبت!

وعرضها على الجبال، فأبت!

السماوات والأرض والجبال أبَيْنَ حَمْلَ الأمانة؛ استعظامًا لها، وإشفاقًا، وخوفًا من مَغَبَّةِ عدم القيام بها:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكلمة «عرضنا» تعني أن الله - جل شأنه - قد ترك لمن تُعرض عليه الأمانة حُرِّيَّةَ الاختيار في قبولها من عدمه، وأنه سبحانه لم يُجبر أحدًا على قبولها ...

ثم عرضها سبحانه على الإنسان، فقبل، ووافق على حملها:

﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

.. نعم، وافق!

.. وافق أن يعبد الله بالغيب، ويخضع له، ويطيعه، ويؤدي ما
افترضه من تكاليف، في ظل وجود المعطيات المختلفة، كنفسٍ أمارة
بالسوء، ودنيا مُلهية، وعدوٌّ يَتَرَبَّصُّ به.

وافق الإنسان على ذلك.

إن أحسن ونجح في الاختبار فاز بالجائزة والنعيم الدائم.

وإن تمرّد وأساء ورسب فسيُعاقب ويحبس في النار.

لم يُجبر الله - عز وجل - الإنسان على القبول:

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

مع الأخذ في الاعتبار أن المقصود بلفظ الإنسان هنا هو عموم
الناس... أنا وأنت، وأبي وأبوك، وجميع البشر.

الكل - والله أعلم - قد حضر هذا المشهد، وعُرض عليه حمل
الأمانة بما فيها من تكاليف ومغارم ومغانم... فوافق^(١).

(١) تأمل - مثلاً - في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، فلفظ الإنسان في السورة يدل على العموم... جميع الناس، وما يؤكد ذلك هو ذكر الاستثناء =

إذن الكل قد حضر، ووافق على حمل الأمانة بتكاليفها.
 لم نُجبر على الموافقة.. قبلنا جميعاً.. هذه هي الحقيقة.
 فإن قلت: لم نكن نعلم بأبعاد تلك الأمانة، جاءك - بفضل
 الله - الجواب: ولماذا أبت السماوات والأرض والجبال؟!
 إن امتناعهن عن القبول دليل على وضوح الرؤية لأبعاد حمل
 الأمانة.

الرب الودود:

.. نعم، هذا القبول من الإنسان له عند الله - عز وجل - حفاوة
 وتقدير وإكرام وتفضيل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

= «إلا الذين آمنوا» أي إن جميع الناس في خسر إلا هؤلاء...، وأيضاً في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦]، وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]، المعنى واضح، لفظ الإنسان يدل على عموم الناس، ولو كان هناك استثناء لذكر كما في سورة العصر والتين والمعارج، أي أن قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ يعني عموم الناس، والله أعلم.

والقارئ المتدبر للقرآن يجد فيه مظاهر تلك الحفاوة والتكريم، ويجد فيه كذلك خطاب الله الودود للإنسان، ويلمس فيه إرادته سبحانه الخير له، والنجاح في اختبار حمل الأمانة.. ومن مظاهر ذلك:

تسخير الأرض له:

فلكي يتفرغ الإنسان لوظيفته، وينجح فيها، فقد سخر الله له كل ما في الأرض لخدمته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣].

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ [النحل: ٥].

فكأن كل ما على الأرض يهتف بالإنسان: «لقد خلقنا من أجلك ... لخدمتك، فلا تنشغل بنا عما خلقت له».

ولئن كان المطلوب من الإنسان هو عبادة ربه بالغيب؛ إلا أنه سبحانه قد جعل في الكون بلايين الآيات الدالة عليه، التي من شأنها -إن أحسن المرء التعامل معها- أن تُعرِّفه بربه، وبأسمائِهِ وصفاته، فيزداد بهذه المعرفة خشية له سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِي نَفْعٍ لِّلنَّاسِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ

وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٦٤﴾.

فإن شرد البعض عن الله، ولم يلتفتوا لآياته الدالة عليه؛ فإنه سبحانه لا يتركهم، بل يتودد إليهم، ويستحثهم على العودة إليه، والاستجابة له قبل فوات الأوان: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧].

ومن صور هذا التودد تلك المحفزات التي من شأنها أن تدفع العاقل نحوه سبحانه ... ومن ذلك:

أن باب التوبة إلى الله مفتوح لا يُغلق ليلاً أو نهاراً.

عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: «ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان فيك، ابن آدم، إن تلقني بقرباب الأرض خطايا لقيتك بقربابها مغفرة بعد ألا تشرك بي شيئاً، ابن آدم إنك إن تذنّب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء، ثم تستغفري أغفر لك ولا أبالي»^(١).

(١) رواه أحمد في المسند (٣٥/٣٧٥ برقم: ٢١٤٧٢)، والدارمي في السنن (٣/١٨٣٥ برقم: ٢٨٣٠)، عن أبي ذر رضى الله عنه، ورواه الترمذي عن أنس رضى الله عنه (٥/٥٤٨ برقم: ٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما (١٢/١٩ برقم: ١٢٣٤٦)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٢٧).

... هذا الباب مفتوح حتى الغرغرة: «إن الله تعالى يقبل توبة عبده ما لم يُغْرِغْ»^(١)، وحين يعود الشارد إليه، ويتوب توبة صادقة فإنه سبحانه يمحو سيئاته السابقة، بل يُبَدِّلُهَا حَسَنَاتٍ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدُلُّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن مظاهر الود الإلهي أن الحسنة بعشر أمثالها، أما السيئة فتُقابَلُ بمثلها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا

وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وليس هذا فحسب، بل إنه سبحانه يُرْسِلُ لعباده بعض المكفَّرات التي تكفر خطاياهم كالمرض، والألم، والهم، والغم... حتى الشوكة.. وغير ذلك من مظاهر وُدِّه سبحانه بعباده:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

(١) رواه أحمد في المسند (١٠/٤٦١ برقم: ٦٤٠٨)، وابن ماجه (٥/٣٢٣ برقم: ٤٢٥٣)، والترمذي (٥/٥٤٧ برقم: ٣٥٣٧) وقال: حديث حسن غريب، وابن حبان (٢/٣٩٥ برقم: ٦٢٨)، وحسنه الأرنؤوط.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهكذا يتضح جلياً مدى التكريم والود الإلهي للإنسان لقبوله

حمل الأمانة: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢)

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

العهد والعقد والميثاق

بعد أن قَبِلَ الإنسان حمل الأمانة حدث بعد ذلك أمرٌ جَلَلٌ.. فقد جمع الله -عز وجل- جميع بني آدم... نعم، الجميع دون استثناء.. حينها لم يكن هناك فارقٌ بين الحاضرين.

ليس هناك: أبيض أو أسود.. غني أو فقير.. صحيح أو مريض.. ذكي أو غبي.. طويل أو قصير.. جميل أو قبيح.. قوي أو ضعيف.. لا توجد لغات مختلفة... لم يكن هناك رايات للقبائل أو العوائل أو البلدان.. لم نجتمع بالآباء والأولاد الذين سنكون معهم في الدنيا.. ليس هناك صلة بينك وبين غيرك.. كل واحد بمفرده: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الجميع سواسية.. لا فارق بين الحاضرين..

كان الهدف من الجمع التعرف على تفاصيل الأمانة بعد أن وافق الجميع على حملها.. وهناك تم القبول التفصيلي، وصار بين سائر البشر وبين الله -عز وجل- عقد، وعهد، وميثاق...

فما هي بنود هذا العقد والميثاق؟!

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فكان الإقرار والقبول من الجميع: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:

١٧٢] أي أقرؤا له بالربوبية.... كان الإقرار والقبول بالعلاقة التي تجمعنا وسائر البشر بالله عز وجل، وهي الربوبية ... يُقابلها من البشر العبودية.. أي أنها علاقة العبودية بالربوبية.

أو بعبارة أخرى أننا شهدنا وأقرنا بربوبيته سبحانه؛ ومن ثم فعلينا أن نعيش دومًا في حقيقة فقرنا، وضعفنا، واحتياجنا الماس والمطلق له، فنكون دومًا في حالة من الخضوع، والتضرع، والذل، والتواضع، والافتقار والاستسلام له سبحانه.

... في هذا المشهد كان الوعد من الجميع بتنفيذ ما عاهدوا الله

عليه، تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

ويؤكد ذلك ما جاء في الدعاء النبوي: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»^(١).

(١) رواه البخاري (٨ / ٦٧) برقم: ٦٣٠٦.

طبيعة الاختبار:

.. في هذا المشهد تم بيان طبيعة الاختبار، والتحذير من العقبات، وكذلك عداوة الشيطان الأبدية لجميع البشر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غْفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

أَفَنُهِّلْكُمْ عَمَّا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

ففي الآيات ما يؤكد إعلام الله - عز وجل - لسائر البشر بأن هناك يومًا سيعودون فيه جميعًا إليه، وهو يوم القيامة...

وفي هذا المشهد أيضًا تم التحذير من اتباع الآباء على ضلالهم... وليس ذلك فحسب هو ما تم بيانه في هذا الموقف..

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آوَاكَ إِلَهُكَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَدْرَاكَ أَنْ لَا تُعْبَدُ إِلَّا الشَّيْطَانُ

إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ففي هذه الآيات ما يؤكد بأن الله - عز وجل - قد حذرنا من عبادة الشيطان، وطالبنا بعبادته سبحانه.. والله أعلم.

.. نعم، أخي، لقد تم بيان كل شيء في هذا المشهد العظيم..

ولقد بين لنا سبحانه أن العائق الأكبر أماننا هو الأنفس:

﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأبطل الحُجَج التي سيحتج بها البعض:

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

أَفَنُهِّلُكُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وحَدَّدَ للجميع موعد العودة:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وسماه:

﴿يَوْمَ النَّالِقِ﴾ [غافر: ١٥].

وأخبر الله - عز وجل - بني آدم بأنه سيرسل لهم رُسلاً يُذكِّرونهم

بما جاء في العهد والميثاق: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِيْ فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

الآيات الدالة على الله:

لقد أكرم الله -عز وجل- الإنسان بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي تذكره بالعهد والميثاق، وتبين له الطريق الموصل للالتزام به، وأكرمه كذلك بالآيات المبثوثة في نفسه والكون المحيط به التي تهتف بالدلالة عليه سبحانه، وعلى أسمائه وصفاته، وعلى البعث والحساب: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وهذا مثال يبين أهمية الآيات المحيطة بنا في الدلالة عليه سبحانه، وأن الواجب يحتم علينا أن نتوجه بتلقائية نحو التفكير فيها ونتلمس الحكمة من وجودها..

لو أنك كنت خارج منزلك، ولم تترك فيه أحداً، وعدت إليه بعد مدة، فوجدت مائدتك قد امتلأت بأنواع مختلفة من الأطعمة

الشهية، والعصائر، والحلوى... هل ستسارع بالتهام الطعام؟ أم ستفكر أولاً فيمن فعل ذلك؟!

هذا المثال قريب مما نعيش فيه؛ فالكون المسخر المحيط بنا، ألا يدعونا إلى التفكير في الحكمة من هذا التسخير؟!

أليس من البدهي التفكير في هذا الأمر، كما أنه من البدهي التفكير فيمن وُضِعَ الطعام على المائدة؟!

.. ولقد بيّن القرآن في أكثر من موضع هذا المعنى، وأن الكون المحيط بنا يكفي تماماً للدلالة على الله عز وجل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤].

من أين جاء؟!

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥)

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٦)

فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧)

وَعَيْنَا وَقَضْبًا﴾ (٢٨)

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩)

وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ (٣٠)

وَفَيْكَةً وَأَبَا﴾ (٣١)

مَنْعَالَكُمْ وَلَا تَعْمَلُوا﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢]

وحين عرّضت سورة (ق) دعاوى المشركين وتكذيبهم
بالبعث كان الردُّ المفحم من خلال التذكير بهذا المعنى .. بالنظر إلى
الكون وما فيه من آيات بينات:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١﴾ بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِنَا أَنْجَاءً لِّمَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ
هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ
مِنْهُمْ ٤﴾ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ٥﴾
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦﴾ وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ
عَبْدٍ مُنِيبٍ ٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٩﴾
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعْمٌ نَضِيدٌ ١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
الْخُرُوجُ ﴿[ق: ١ - ١١].

وعندما تحدثت سورة الغاشية عن النهاية .. نهاية المكذبين،
ونهاية الطائعين، أردفت ذلك بهذا المعنى، وابتدأته بقوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١﴾ [الغاشية: ١٧].

وكان الآيات تهتف بنا: ألم يكن يكفيكم هذه المشاهد، وما فيها
من آيات لتستدلوا بها على الله وعلى البعث؟

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ٣﴾

تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْتَعِي مِنْ عَيْنٍ أَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَوُجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَارٍ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

[الغاشية: ١ - ٢٦].

ألم يأتكم نذير؟!

ومما يؤكد هذا المعنى: أن النار تُزَجَّر، وتكاد تَمَيِّز من الغيظ كلما دخلها فوج من البشر، وكأنها تهتف بهم: لقد كانت تكفيكم بلايين الآيات التي أحاطت بكم للتعرف من خلالها على ربكم، وعلى البعث والحساب، فلئن كنتم قد أهملتموها فلقد خسرتم خساراً مبيئاً، وسيرتم بأنفسكم في طريق الهلاك، ... ثم كيف يرسل الله لكم بعد ذلك رسلاً فتكذبونهم؟ ولا تتبعونهم؟ لماذا؟

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

إِذَا الْقُلُوبُ فِيهَا سَعَوْهَا شَهيقاً وَهْيَ تَقُورُ ﴿٧﴾

تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ

كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا... ﴿[الملوك: ٦ - ٩].﴾

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

.. نعم أخي، فأمر الإنذار بالآيات والرسل والكتب أمر عظيم، والإعراض عنه عاقبته أليمة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخَفُوا عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

قَالُوا بَلَىٰ

قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿[غافر: ٤٩، ٥٠].﴾

وظيفة الرسل:

إن المهمة الأساسية للرسول هي تذكير الناس بما تَصَمَّنَه العهد الذي عاهدوا الله عليه، وإنذارهم بالعاقبة السيئة إن لم يلتزموا بعقدهم معه سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ

وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ =

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[الأحقاف: ٢١]

وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن رجب في شرحه لقول النبي ﷺ: «حتى يُعبد الله وحده لا شريك له»^(١): هذا هو المقصود الأعظم من بعثته ﷺ، بل من بعثة الرسل من قبله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فما خلقهم إلا ليأمرهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم من صلب آدم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

(١) يعني حديث «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» رواه الإمام أحمد في المسند (١٢٦/٩) برقم: (٥١١٥) عن ابن عمر، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٠٩/٥).

مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد تكاثرت الأحاديث المرفوعة والأخبار الموقوفة في تفسير هذه الآية أنه تعالى استنطقهم حينئذٍ، فأقروا كلهم بوحدانيته، وأشهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة ..

ثم إنه تعالى تعهدهم في كل زمان بإرسال رسله، وإنزال الكتب يُذكِّرهم بالعهد الأول، ويجدد عليهم العهد والميثاق على أن يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ...

وأشار في خطاب آدم وحواء عند هبوطهما من الجنة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وفي سورة طه نحو هذا.

فما وُقِّي بنو آدم كلهم بهذا العهد المأخوذ عليهم؛ بل نقضه أكثرهم وأشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، فبعث الله الرسل مُجدِّد ذلك العهد الأول وتدعو إلى تجديد الإقرار بالوحدانية^(١).

(١) رسالة «الحكم الجديرة بالإذاعة» من قول النبي ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة» من مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

القرآن والتذكير بالعهد الأول:

والم تأمل للقرآن العظيم يجد أكثر من آية تذكّر بهذا العهد وتأمر
بالوفاء به: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ
قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وتمتدح من يلتزم ويفي به: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٤].

وتندّم من ينقضه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

[الرعد: ٢٥].

بل إن القرآن يصف من لم يلتزم بالعهد والميثاق بالخوان:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
[الأنفال: ٢٧].

يقول عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: يأمر تعالى

عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدّها بل خانها استحق العقاب الويل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، مُنْقَصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشّيات، وهي الخيانة، مُقَوِّتًا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة^(١).

ونجد هذا المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

يقول ابن باديس رحمه الله: هذا من الله تعالى خبرٌ حق ووعد صدق للمؤمنين، بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم، ويبطل مكرهم، وَيَكْفُ ضَرَّهُمْ، وَإِنْ عَظُمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَكَثُرَ، وَإِنْ هَذَا مِنْهُمْ مُتَكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ حَافِظُوا عَلَى أَمَانَةِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ، وَعَهْدِهِ لَدَيْهِمْ، وَاعْتَرَفُوا بِنِعْمِهِ وَشَكَرُوهَا، فَأَحَبَّهُمُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، فَأَيَّدَهُمْ وَنَصَرَهُمْ، وَدَافَعَ عَنْهُمْ، وَلِأَنَّ أَعْدَاءَهُمْ ضَيَّعُوا أَمَانَةَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ، بَارْتِكَابِ الْمُنْهَيَاتِ، وَتَرْكِ الْمَأْمُورَاتِ، وَجَحَدُوا

(١) تفسير السعدي (ص: ٣١٩).

وحدانيته أو نبوة نبيه ﷺ أو ما جاءهم به من شرعه، فأبغضهم وردَّ كيدهم مغلوبين مدحورين^(١).

عودة إلى المشهد العظيم:

أخرج الحاكم عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال: جمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً، ثم صوَّرههم، واستنطقهم، فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم، ألسن بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا.. أن تقولوا يوم القيامة، إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكُنَّا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟ قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: «لم نعلم»، أو تقولوا: «إنا كنا عن هذا غافلين»، فلا تُشركوا بي شيئاً، فإني أرسل إليكم رسلي، يُذكِّرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي، فقالوا: نشهد أنك ربنا، وإلهنا لا رب لنا غيرك..^(٢)

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: ٣٥١).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٣٥٣ برقم: ٣٢٥٥)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ورواه عبد الله في زياداته على المسند (٣٥/ ١٥٥ برقم: ٢١٢٣٢)، وحسنه =

وأخرج الطبري في تفسيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله في هذه الآية: ... ثم أخذ عهده على الإيمان والمعرفة به وبأمره، والتصديق له ولأمره؛ بني آدم كلهم، فأشهدهم على أنفسهم، فآمنوا وصدّقوا وعرفوا وأقرّوا^(١).

لا أذكر هذا المشهد:

قد يقول قائل: أنا لا أذكر شيئاً من هذا المشهد وما كان فيه من وعد وعهد وميثاق.

.. نعم، لا توجد لدينا صورة ذهنية لهذا المشهد، فلو افترضنا أن ما حدث فيه ظلّ عالقاً بالأذهان، فما قيمة الإيمان بالغيب؟!

بمعنى: أننا لو تذكّرناه لانتقل الإيمان من الغيب إلى الشهادة، ولا تنفَى عنّا أهم عامل من عوامل اختبارنا في الدنيا... فعلى سبيل المثال: عذاب القبر الذي ينال المكذّبين تشعر به البهائم والدواب، ولا نشعر به؛ لأننا نعبد الله بالغيب، فلو كُنّا كالدواب مثلاً وشعرنا بهذا العذاب لدُفَعنا دَفْعاً نحو الإيمان، ولأصبح اختبار الإيمان بالغيب اختباراً يسيراً، بل لا يكاد يُطلق عليه اختبار ... والله

= الضياء في المختارة (برقم: ١١٥٨).

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٨ - تحقيق شاکر - مؤسسة الرسالة).

أعلم... ومع ذلك، فالرب الودود الرحيم، ترجم لنا نتيجة هذا
 المشهد العظيم وما كان فيه من عهد وميثاق في صورة فطرة
 حنيفة... أي ميل نحو الحق؛ ولئن كنا قد خلقنا بين طريقين ..
 طريق الخير والشر.. الحق والباطل، وعلينا أن نختار بإرادتنا السير
 في أيهما؛ ومن ثم نحاسب على نتيجة اختيارنا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾
 [البلد: ١٠].

﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١)

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)
 إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿[الإنسان: ١ - ٣].

إلا أننا لم نبدأ من المنتصف، فالرب الرؤوف الرحيم جعل
 بدايتنا: ميلاً وانحرافاً نحو طريق الحق، ونحو توحيده، وهو ما يُسمى
 بالفطرة الحنيفة: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» (١).

وقال ﷺ: قال الله تعالى: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءً» (٢).

(١) رواه البخاري (٩٤ / ٢) برقم: (١٣٥٨) ومسلم (٢٠٤٧ / ٤) برقم: (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢١٩٧ / ٤) برقم: (٢٨٦٥).

جاء في سنن أبي داود أن حمّادًا بنَ سلمةَ فسّر حديث: «كل مولود يولد على الفطرة» قال: هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

[الأعراف: ١٧٢] (١).

ومما يعطينا صورة أكثر تفصيلاً عن كُنه وماهية الفطرة الحنيفية التي خلقنا عليها ما جاء في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: «إذا أردت مضجعك، فقل: «اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت»، فإن متّ، متّ على الفطرة» (٢).

تأمل معاني الدعاء وما فيه من استسلام تام لله وإقرار بمدى فقرنا إليه سبحانه وربوبيته التامة علينا، ثم تأمل قوله ﷺ: «فإن متّ، متّ على الفطرة»... أي أننا قد خلقنا وبدأنا حياتنا على الأرض بهذا الحال وهذه العلاقة مع الله عز وجل.

(١) سنن أبي داود (٧/ ٩٩ - تحقيق الأرئوط).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٦٨ برقم: ٦٣١١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٨٢ برقم: ٢٧١٠).

النزول إلى الأرض

.. لقد كان عهدًا وميثاقًا غليظًا.. تم بعد البيان التام لطبيعة الاختبار ...

وافقنا جميعًا، وقلنا: سمعنا وأطعنا: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

وبعد العهد والميثاق بدأت الأرواح تنزل إلى الأرض وتسكن الأجساد... بدأت أرواح جميع البشر تنزل مجموعة تلو الأخرى إلى الأرض في أزمنة وأماكن مختلفة، وفي بيئات متفرقة، وآباء وأمهات مختلفين، وأجساد مختلفة، من حيث اللون والشكل والصحة والمرض والذكاء، و... إلخ.

والجدير بالذكر أنه عند لحظة الولادة كان الجميع لا يعلم شيئًا عن الحياة في الأرض ومفرداتها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

.. وشيئًا فشيئًا، وبحسب أحوال الآباء والبيئات، والأجواء المحيطة و....، يبدأ الطفل الذي يحمل رُوحًا قد شهدت العهد

والميثاق ... يبدأ في اكتساب معلوماتٍ، ومهاراتٍ، وخبراتٍ، ولُغةً، ومعارفَ تختلف من شخص لآخر باختلاف ما يتعرض له، وكلما نما الطفل وكبرت سنه ازداد اكتساباً لتلك الأمور... ولئن كان في لحظة الولادة: لا يعلم شيئاً، ولا يملك شيئاً؛ فمرور الوقت، وباتصاله بأسرته وبيئته المحيطة، والتحاقه بالتعليم، و... إلخ، أصبح له: نسبٌ، وجاهٌ، ومُلْكٌ، وأموالٌ، وشهادات، وخبرات، وأصدقاء، وزوجة، وأولاد، و.... كل ذلك زائد عن لحظة الولادة، وعما كان عليه يوم الميثاق.

وكما سبق ذكره، فقد كنا يوم الميثاق فرادى، لا نَعْرِفُ آبَاءً، أو أزواجاً، أو أشقاءً، أو أبناءً، أو أقارب.

الانبهار بالدنيا:

جعل الله -عز وجل- في مكان الاختبار -الدنيا- من الزخارف والمباهج والملهيات ما يشكل مادة لامتحان بني آدم، ويكشف مدى حرصهم على الالتزام بالعهد والميثاق: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ومما يدعو للأسف أن كثيراً من الناس استجاب لوساوس الشيطان، وسار وراء هوى نفسه في حُبِّ التمتع بمباهج الدنيا،

وطلب العلو فيها، واستغلَّ كل واحد ما عنده وما اكتسبه من مهارات وخبرات وأموال، وما ينتمي إليه من نسب، و... استغل ذلك في طلب العلوِّ في الأرض، والتنافس على الدنيا... فسَيَّ الناس العهدَ والميثاق، وبدأت الفطرة تنحرف نحو طريق الباطل، بدرجة تختلف من شخص لآخر، فكان الضلالُ والبعد عن الطريق الصحيح... الصراط المستقيم، وكلما ازداد المرء تعلقاً بالدنيا وانشغالا بها؛ ازداد بُعده وضلاله عن الصراط المستقيم.

عند الموت تنكشف الحقيقة:

أرسل الله -بفضله ورحمته- الرسل ليُذكِّروا الناس بما تضمنه العهد والميثاق، وأنزل معهم الكتب، وكان آخرها القرآن الكريم الذي تفيض آياته في ذكر حقيقة العهد، وما ينبغي أن تكون عليه علاقتنا بالله عز وجل، وغير ذلك من الواجبات المطلوبة، ولكن الانبهار بالدنيا، والسير وراء هوى النفس وغواية الشيطان جعل الكثير والكثير ينسى الحقيقة الخالدة:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١)

مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿٢﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

﴿أَلَهَكُمْ الْكَاثِرُ﴾ ① ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [النكاث: ١، ٢].

انخدع الناس بالدنيا، وانبهروا بها، واستغل الشيطان هذا الانبهار في إضلالهم وإبعادهم عن حمل الأمانة والالتزام بالعهد الأول...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

فَلَا تُغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

وَلَا يُغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ②

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا

إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

غفل البشر عن حقيقة وسبب وجودهم في الأرض وكأنتهم لم يعاهدوا الله على شيء، وليس ذلك فحسب؛ بل تعاملوا مع حياتهم بطريقة توحى بعدم شعورهم بالاحتياج إليه سبحانه، ومع ذلك فإن الرب الودود لم يتركهم لغفلتهم، بل أرسل لهم على مر الأزمنة مذكرات تذكّرهم بحقيقة ضعفهم واحتياجهم إلى ربهم لعلهم يعودون إليه:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا

يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

﴿وَلْيَذِيقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[السجدة: ٢١].

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَا نُزِيلُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

ولكن الغالبية من البشر خدعتهم الدنيا، فهماموا حباً فيها، وتعلقاً بها، فلم ينتفعوا بما يرسله الله لهم من آيات ونذُر، واستمروا في غفلتهم وسكرتهم وابتعادهم عن طريق ربهم: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

.. ولم يشأ الرب الودود أن يقطع عنهم آياته ونذره لعلهم يرجعون، فكانت آيات التخويف العامة كالفيضانات، والصواعق، والجذب، والسيول، وكذلك الآيات الخاصة بكل فرد: كالمرض والنقص والتعسير... كل ذلك وغيره يهدف إلى إفاقة الناس من غفلتهم قبل فوات الأوان، لكنهم -إلا من رحم الله- لا يريدون الإفاقة، فلقد استحبوا الحياة الدنيا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

[الحجر: ٧٢].

كشف الغطاء

يستمر الأمر على هذا المنوال.. وتمضي بالناس الأيام والسنون،
فلا يزدادون بمُضيِّها إلا غفلةً وبُعدًا وضلالًا عن طريق ربهم...
ولكن إلى متى يستمر ذلك؟!

تستمر هذه الغفلة والسكره حتى تأتي لحظة المفاجأة والصدمة
والإفافة الحقيقية... لحظة ملاقات الموت.

...نعم، الموت.

عندها يحدث شيء عظيم... تُنزع الروحُ من الجسد.

تُنزع الروح لتعود كما كانت أول مرة.

بلا شهادات.. بلا مواهب.. بلا لغة.. بلا مهارات.. بلا

أموال.. بلا أمراض..

نُخلع من كل شيء اكتسبناه، أو امتلكناه في الدنيا.

ننتقل من عالم الأسباب، ونترك قانون السببية؛ ونخرج من

إطار الزمان والمكان.

فلا قوة، ولا قدرة.. لا ضعف ولا عجز... استسلام تام..

لا جهل، ولا علم.. لا ذكاء، ولا غباء.. لا رُتب، ولا جاه..
لا نسب، ولا علو.. نعود كما بدأنا ... الكل سواسية:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ

كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

عند الموت نتقل من عالم الزمن والأسباب إلى عالم آخر تماماً... نخلع اللباس الذي ارتديناه في الدنيا... ألا وهو الجسد بما فيه من ضعف أو قوة، من مهارات أو خبرات، من شهادات، أو... نخلع هذا اللباس ونتركه ليبل، ونُفاجأ حينها بأمر خطير.. خطير..! فعند الموت ينكشف الغطاء عن الحقيقة... فتذكر العهد الأول، والوعد الذي وعدنا به الله عز وجل.. نتذكر ذلك، ونتذكر أيضاً انحرافنا الشديد عن هذا العهد ومدى نقضنا له:

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ

فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قبل ذلك اليوم كانت الغشاوة المكتسبة من الغفلة وظلمة المعاصي والانبهار بالدنيا تحُول بين المرء وبين رؤية الحقيقة... والآن زالت الغشاوة، وظهرت الحقيقة، ويعود الجميع لأصله الذي بدأ عليه:

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الفلاح والصانع.. العالم والجاهل.. الرئيس والمرؤوس.. الكل يترك اللباس الذي ارتداه، يتركه بكل ما فيه، وما أضافه إليه طيلة عمره..

المريض يخلع رداء المرض، والصحيح يخلع رداء الصحة.. وكذلك الغني والفقير.. والوَلُود والعقيم.. والقوي والضعيف.. والمتكبر والمستضعف... الكل يخلع رداءه، وينكشف غطاؤه، وتعود بصيرته لِعَمَلِهَا، فيرى الحقيقة، ويتذكر العهد، والوعد... فأئى حسرة وصدمة وضيق وفرع يعيشها الغافل في هذه الحال!

تخيل هذا الموقف.. ولتخيل أنفسنا جميعا فيه.. فيا للمصيبة... ويا للكارثة.

القدوم على الله:

في خِصَمِّ هذه الصدمة، ومع هَوَل هذه المفاجأة ووقع المصيبة،

ومع الاستسلام التام للملائكة.. تُساق الأرواح إلى السماء للقدوم على الله.

لنتخيل أنفسنا ونحن نعيش في أجواء الصدمة والمصيبة،
ونحن نُقارن ما عاهدنا الله عليه، مع ما فعلناه في الدنيا.
لنَتَخَيَّلْ أنفسنا والملائكة تَسوقنا نحو السماء للقدوم على الله ...
أي خوف ورُعب وهول وصدمة يعيشها المرء حينها!!!

ثم يحدث الأمرُ المتوقع للكثيرين .. أن تُغلق السماء أبوابها أمام
تلك الأرواح، وترفض -بأمر الله- صعودها نحوه سبحانه، فهو
لا يريد مقابلة هؤلاء الخائنين لعهدهم ... وما بين خروج الروح
من الجسد، وامتناع أبواب السماء السماح لها بالصعود تتوالى عليها
اللعنات من الملائكة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا

لَا نَفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ

وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

قال رسول الله ﷺ: «... إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من

الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يحيي ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب.. قال: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَتَزَعُّهَا كَمَا يَتَزَعُّ السَّقُودُ^(١) من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأتين ريح جيفة وَجِدَتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملام من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأفبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له.. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْنَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فَطُرحَ رُوحُهُ طَرَحًا».. ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

.. فتُعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟

(١) سيخ ذات شُعَبٍ معقوفة يُشوى به اللحم (لسان العرب: ٣/ ٢١٨).

فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كَذَبَ، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرّها، وسمومها، ويُضَيَّقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلّاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، متن الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عمّلك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِم الساعة^(١).

.. أما العبد المؤمن الذي نجح في اختبار العبودية فحاله كما جاء في الحديث:

«إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفّنٌ من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله

(١) رواه أحمد في المسند عن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً (٣٠/٤٩٩ برقم: ١٨٥٣٤)، وأبو داود (٧/١٣١ برقم: ٤٧٥٣)، والحاكم في المستدرک (١/٩٣ برقم: ١٠٧)، وصححه البيهقي في شعب الإيمان (١/٦١٠ برقم: ٣٩٠)، وله شاهد في صحيح مسلم مختصراً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

ورضوان.. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء،
 فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها،
 فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب
 نفحة مسك وجدت على وجه الأرض.. قال: فيصعدون بها، فلا
 يمرون، يعني بها، على ملا من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح
 الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمّونه
 بها في الدنيا، حتى يتتها بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح
 لهم فيُشيعه من كل سماءٍ مُقَرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُتهدى به
 إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في
 عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم،
 ومنها أخرجهم تارة أخرى.. قال: فتُعاد رُوحه في جسده، فيأتيه
 ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان
 له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل
 الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما
 علّمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت، فينادي منادٍ
 في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة،
 وافتحوا له باباً إلى الجنة.. قال: فيأتيه من رُوحها، وطيبها، ويفسح

له في قبره مد بصره.. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسُرُّكَ، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عمالك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة»^(١).

(١) من الحديث السابق.

النهاية

تعود الأرواح إلى القبور، وتظل فيها إلى اليوم الموعود، يوم التلاقي.. اليوم الذي حدده الله عز وجل للبشر بالعودة إليه حين أخذ منهم العهد، فقد أخبرهم بأنه سيلتقيهم ثانياً، ويحاسبهم على عهدهم، وميثاقهم... وذلك يوم القيامة... يوم العودة والحساب.. يوم التلاقي..

يوم الحشر:

يستمر نزول الأرواح، وسكنها في الأجساد، ومكثها على الأرض مدة من الزمن حتى يأتي الموت، فتذهب إلى القبور... يستمر الأمر كذلك حتى تكتمل عدّة البشر التي قدر الله لها أن تنزل إلى الدنيا، وتختبر فيها، وحينها تحدث أمور جسام تُبنى بانتهاء اختبار البشر.. فتتحطم الأرض والجبال، وتُسجّر البحار: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ - ١٤].

وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيُخْرِجُ الْجَمِيعَ مِنَ الْقُبُورِ، وتبدأ أحداث الحساب.. أحداث يوم القيامة.

يُسَاقُ الْجَمِيعُ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ، نعم... الجميع، لن يَتَخَلَّفَ أحد، وكيف يتخلف وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً:

﴿مَالِكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾

بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَاوُونَ ﴿[الصافات: ٢٥ - ٢٦].

لا مفر أمام الإنسان .. أي إنسان.. إلا الاستسلام:

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي الْمَفْرُوقُ ۝١٠﴾

كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿[القيامة: ١٠ - ١٢].

الكل سيجتمع في أرض المحشر .. أرض الحساب:

﴿وَيَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۝١٠﴾

وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿[الكهف: ٤٧].

يوم عصيب:

تَحِيلُ النَّاسَ -ونحن منهم- حين يتوجهون لأرض المحشر

والحساب، وهم يعلمون أنهم قد خانوا العهد والميثاق ... أيُّ حال يومئذٍ هو حالهم؟

وأيُّ كَرَب هو كَرِبُهُم؟ وأيُّ ذُھول هو ذُھولهم؟
سيُحْشَرُونَ عُرَاءً، ومع ذلك لا ينظر أحد إلى غيره، كلُّ مشغول بمصيبته .. يفكر فيما فعله وفي تقصيره وذنوبه ... حتى المؤمن ...!
يوم عَصِيب .. عَصِيب.

ما أسمعَ النَّاسَ .. جميعَ النَّاسِ ... وما أبصرَ-هم يومئذٍ!!
ولكن هل ينفعهم ذلك؟!
﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا﴾ [مريم: ٣٨].

لقد كان المطلوب هو السماع والإبصار في الحياة الدنيا: ﴿لَكِنْ أَظْلِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] .. فيا ترى كيف تكون الحسرة حين نسمع ونبصر بعد فوات الأوان؟ .. ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

الدنيا التي تعبنا كثيرًا لجمعها.. المال.. الذهب .. العقار.. الأرض.. أين هذا كله؟! جميعها عادت لصاحبها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

ضاع كل شيء.. وبقيت الحسرة والندم: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ
قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩].

الغضب الإلهي:

يغضب الرب -جل وعلا- من البشر الذين خانوا العهد.
أهؤلاء هم الذين اجتمعوا في المشهد العظيم، ووافقوا على
الاختبار، وأعطوا العهد والميثاق؟!
أهؤلاء هم الذين تم تحذيرهم مما سيجدونه في الأرض، ومع
ذلك وقَّعوا فيها حُدُروا منه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾

[السجدة: ١٢].

.. يغضب الرب -جل وعلا- من البشر الذين نقضوا العهد
وخانوا الأمانة وساروا وراء عدوه.

يغضب الرب، ويطول اليوم، وتزداد الكُربات، والضيق،
ويتمنى الناس أن يبدأ الحساب، فيذهبون إلى أبي البشر آدم عليه السلام.

.. عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الناس

الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات -

فذكرهن أبو حيان في الحديث^(١) - نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى ابن مريم، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيّاً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع

(١) عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي ﷺ، قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام» (رواه البخاري (٤/١٤٠ برقم: ٣٣٥٨) ومسلم (٤/١٨٤٠ برقم: ٢٣٧١) واللفظ له).

لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحُسن الشاء عليه شيئاً، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سَلْ تَعْطَهُ، واشفع تُشَفِّعْ فأرفع رأسي»^(١).

هل هناك فداء ١٩

بعد أن تنكشف الحقيقة، وتسقط الدعاوى، يُفاجأ المرء بأنه قد ظلم نفسه ظلمًا شديدًا.. فيحاول البعض أن يجد مخرجًا.. يتمنى أن يقدم الفدية.. أن يفدي نفسه من العذاب بابنه وابنته، وزوجته، بأبيه، بأمه، بأخيه، لا يهمه هؤلاء... ما يهمه هو نفسه! فيرفض طلبه:

﴿بَصُرُونَهُمْ.. يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِهِ﴾^(١١)

وَصَحْبَتِهِ، وَأَخِيهِ^(١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا^(١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يَنْجِيهِ^(١٤)

كَلَّا^ط ﴿[المعارج: ١١ - ١٥].

يود لو عرض الفدية بكل ما كان يملكه في الدنيا من مال، وذهب، وعقارات، بل يود لو عرض الفدية بمُلْك غيره.. بكل ما

(١) رواه البخاري (٨٤ / ٦) برقم: (٤٧١٢)، ومسلم (١٨٤ / ١) برقم: (١٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في الأرض لو استطاع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءٌ لِّلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مُفْتَدِيًا به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك»^(١).

الضعفاء:

يأتي الضعفاء... أتباع المستكبرين وأصحاب النفوذ، يأتون بِحُجَّتِهِمْ أنهم كانوا ضعفاء، مغلوبون على أمرهم كما يزعمون.. فُهِرُوا لكي يكفروا ويفسقوا.. يقولون هذا ظناً منهم أنهم سيعذرون: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

الكل يجتهد في إيجاد المبرر لنفسه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

(١) رواه أحمد (٣٠٢/١٩) برقم: (١٢٢٨٩)، واللفظ له، والبخاري (١٣٣/٤) برقم:

(٣٣٣٤)، ومسلم (٢١٦٠/٤) برقم: (٢٨٠٥).

فطائفة تَتَّهَمُ أخرى بأنها السبب في إضلالها: ﴿قَالَتْ أَخْرِبْنَهُمْ
لَأُولَهُمُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتَّهَمَهُمْ عَدَا بَا ضَعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].. وطائفة تحاول الاعتذار فيرفض اعتذارهم:
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]. ﴿وَأِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِّنَ
الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

يُفاجأ المرء بانقطاع الأنساب، وأن ما أفنى حياته من أجله قد
ضاع هباءً حين قدَّم أهله وأولاده وسعادتهم الدنيوية على عهد الله
وميثاقه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسَاءَلُونَ﴾
[المؤمنون: ١٠١].

يتذكر تعبهُ، وجِدَّه واجتهاده في تحصيل أسباب الدنيا له
ولأولاده، وكيف كان يظن أنه بذلك يفعل ما يرضي ربه، ليُفاجأ بأن
الأمر غير ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
يُوزَعُونَ﴾

حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا

أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣، ٨٤].

فُتِلِحَهم هذه الحقيقة، وتصدَّمهم، فلا يجدون جوابًا: ﴿وَوَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥] لتأتي الآيات التي تلي هذا

المشهد لتدحض حجج الجميع، وتبين لهم بأن الكون الدال على خالقه يكفي للتذكرة الدائمة بالله واليوم الآخر:

﴿الْمَرِيرُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّي فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

تَبَيُّضُ وجوه، وتسوُّدُ وجوه ... ويكون اللوم والذم والتوبيخ لهؤلاء الذين اسودَّت وجوههم حين يقفون على الحقيقة، ويتذكرون العهد والميثاق، وكيف أنهم قد كذبوا على الله بما عاهدوه عليه:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: الذين اسودَّت وجوههم هم الكفار، وقيل لهم: أكفرتم بعد إيمانكم حين أخرجتكم من ظهر آدم كالذر^(١).

وقال القرطبي: فأما الذين اسودت وجوههم: في الكلام حَذَفٌ، أي فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ يعني: يوم الميثاق حين قالوا: بلى^(٢).

(١) تفسير الطبري (٧/ ٩٥ تحقيق شاكر) نقلاً عن تفسير القرطبي (٤/ ١٦٧).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٩).

وقال الطبري: الإيمان الذي يُوبَّخون على ارتدادهم عنه، هو
الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ^(١) ؟

.. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

(١) تفسير الطبري (٧/ ٩٥).

لِمَ كُلُّ هَذَا الْعَذَابِ الْإِلِيمِ؟!

قد يرى البعض أن ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة عن صور العذاب في النار، كعقاب للمكذبين والمفرطين يتجاوز بكثير حجم الجرائم والأخطاء التي ارتكبوها في حياتهم الدنيوية، فمشاهد العذاب في القرآن والسنة مروعة ومفزعة ومرعبة، وهي -من وجهة نظرهم- لا تتناسب مع ما فعله هؤلاء الكافرون والفاسقون... فالعذاب فيه مبالغة شديدة -كما يقولون.

مبعث هذا الكلام هو الغفلة عن حقيقة وجودنا على الأرض، وحالة الشُّكْرِ التي تتلبسنا..

لكننا -بالتأكيد- حين نفيق من تلك السَّكرة، وتنقشع سُحُب الغفلة ستجدنا نقول غير ذلك.. وستتوالى الاعترافات من الجميع بمثل ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ

كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]

.. في يوم الحساب ستتوالى الاعترافات والشهادات..

كُلُّ شَيْءٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمُ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَأَنْتَهُمْ هَدَفَ وَجُودَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ: ﴿يَمْعَشِرَ الْجِنَّ
 وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ ءَاتِي

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا

وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿[الأنعام: ١٣٠].

وبعد أن يرى أهل النار صور عذابها يأتيهم السؤال: هل هذا
 العذاب حق؟.. هل يطابق ويوافي جزاء ما ارتكبتموه من تمرد
 وعصيان على الله؟ تجد أجوبتهم تؤكد وتؤكد على أن النار حق،
 وأنهم يستحقونها، مع أنه بإمكانهم الادعاء بأن هذا العقاب لا
 يتناسب مع جرمهم، وأنه مبالغ فيه، ولا يستحقونه، لكنهم بعد أن
 انكشف عنهم حجاب الغفلة، ورأوا حجم نعم الله التي أسبغها
 عليهم، وحلمه وستره وإمداده المتواصل الذي غمرهم في الدنيا..
 وفوجئوا بكم الآيات والرسائل المذكرة التي أرسلها لهم... وقبل
 هذا كله: تذكروا العهد الأول وما فيه من إقرارهم بحمل الأمانة

ووعدهم الذي واعدوا به ربهم على القيام بها..

كل هذا، وغيره مما سينكشف أمامهم سيدفعهم بتلقائية للإقرار بأن النار حق.. وأنهم يستحقونها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ

قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا

قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿[الأحقاف: ٣٤].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ

قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ

قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا

قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿[الأنعام: ٣٠].

فتستجيبون بحمده:

أخي.. لو علمنا كم الرسائل والآيات المتتابعة التي يرسلها الله لنا بالليل والنهار، وما تحمله في طياتها من تذكير بحقيقة وجودنا وأنا في سفر، ومدى حاجتنا الماسة إلى ربنا، وإلى ضرورة العودة إليه قبل فوات الأوان..

.. لو أدركنا كم ومحتوى هذه الرسائل لما ظن أحد أن عذاب

النار لا يتناسب مع جرائم بني آدم:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ..﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وما يمنعنا من رؤية الآيات والتعرف على ما تحمله إلا غفلتنا
وسكرتنا بالدنيا:

﴿أَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ

أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]

وحين يفاجأ المرء -بعد كشف الغطاء- أن الله عز وجل قد أرسل إليه الآلاف من الرسائل والآيات لكنه غفل عنها ولم ينتبه إليها.. عندئذ سيدرك مدى فداحة الخطأ الذي ارتكبه، وسيتملكه الحزى والندامة، وسيقر بأن النار حق، وأن الله -عز وجل- حكمٌ عدل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم. ولئن كنا الآن لا نستوعب ذلك فلأن قلوبنا في غمرة وسكرة.. ويكفي لتأكيد هذا المعنى أنه حين يُنفخ في الصور ويخرج الناس من قبورهم، فإن أول ما ينطقون به كاستجابة لنداء البعث هو: حمد الله..

الكفار والمشركون والفاسقون.. الجميع سيستجيب للنداء
بحمد الله.. أتدري لماذا؟!

لأنهم قد اكتشفوا الحقيقة، وظهر أمامهم كيف أن الله -عز وجل- قد سخر لهم الكون كله، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وساق لهم الرزق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وغمرهم بستره، وأمهلهم طويلاً.. كل ذلك ليقوموا بأداء تكاليف الأمانة، ويوفوا بالعهد الذي عاهدوه عليه..

.. وحين يكتشفون ذلك ويدركون قدرًا من معاملة الله لهم في الدنيا مع إعراضهم عنه.. وأنه سبحانه كان في انتظار توبتهم، وكيف كان إمهاله وتذكيره لهم.. عندئذ سيلقون باللائمة على أنفسهم، ويشعرون بالحياء من ربهم، ويتوجهون له بالحمد التلقائي..

ولله المثل الأعلى: سيكون حال الجميع كحال الطالب الذي وقرَّ له أبوه كل الوسائل المعينة على تحصيله لدروسه، لكنه لم يستفد من ذلك، وأضاع وقته في اللعب واللهو، ولم ينتبه لنصائح والده، وحين ظهرت النتيجة، وعلم برسوبه، وتذكر كيف أسرف على نفسه وأضاع وقته رغم الظروف المناسبة التي وفرها له والده..

حينئذٍ ستجده مقبلاً عليه بالتأسف والإقرار بخطئه، وشكره على ما قدمه من أجله، وأنه لم يقصّر أبداً معه، بل هو الذي قصّر واتبع هواه وغفل عن أداء مهمته..

.. هذا المثال قد يقرب للأذهان حال الناس حين يبعثون بعد أن ينكشف عنهم الغطاء:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجِئُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١].

التلاوم:

.. في بعض مشاهد يوم القيامة سيكون هناك تلاوم شديد بين الإنسان المسرف على نفسه وبين قرينه الشيطان، فيلقي الإنسان باللائمة على قرينه أنه السبب في هذا المصير السيئ الذي ينتظره، فيجيبه القرين بأنه كان لديه استعداد وقابلية للطغيان:

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فيأتي الرد الإلهي بأنه سبحانه قد حذر الجميع من هذا العذاب، وكان الوعيد المتكرر في عالم الذر، وتضمنه كتبه التي أرسلها، وأنذرت به رسله: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨)

مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨، ٢٩].

لقد أخبر الله - عز وجل - جميع بني آدم بما سيحدث لهم إن هم خالفوا أمره ونقضوا العهد الذي عاهدوه عليه، وهو سبحانه يعلم أن ما كلفهم به يقع في حدود وسعهم وطاقتهم:

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^ط

وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

.. إن قول البعض بأن حجم الجُرم الذي يرتكبه العاصون المكذبون في حياتهم الدنيا المحدودة لا يتناسب مع العذاب الشديد في النار.. هذا القول ينطلق من حالة الغفلة والسكرات التي تستحوذ عليهم؛ لذلك تجدهم لا ينطقون بهذه المزاعم بعد انكشاف الغطاء ورؤية الحقيقة، بل يعترفون بخطئهم، ويقررون بجرمهم:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ^{١٠٤}

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْتُمُونَهَا تُكْذِبُون^{١٠٥}

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

[المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٦].

فإن قلت: ولماذا لا يجاب طلبهم بالعودة إلى الدنيا ويأخذوا

فرصة أخرى في اختبار العبودية؟!

نبأنا العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى أنهم لو عادوا ثانية، وعاشوا على الأرض بما عليها من زينة، فسيكررون ما فعلوه لأسباب كامنة في ذواتهم... فهم حين يعودون لن يكون ماثلاً أمامهم ما حدث لهم عند الله؛ ومن ثم سيمارسون حياتهم كما مارسوها من قبل، وسيتبعون أهواءهم وشهواتهم، وسيتشبثون بالدنيا..

ولئن كان موقف الحساب شديداً؛ فإن المشهد العظيم والعهد والميثاق كان شديداً أيضاً، ومع ذلك لم ينتفع أغلب الناس بالحنيفية التي كانت عليها فطرتهم، ولم يستفيدوا بآيات الله، وكذبوا رسله... تأمل قوله تعالى في الرد على طلب أهل النار العودة ثانية إلى الدنيا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ

فَقَالُوا بَلَّيْنَا نَارَهُمْ وَلَا تَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ

وَلَهُمْ لَكِذِبُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

بين البداية والنهاية

إن وجود القرآن العظيم بين الناس من شأنه أن يُقيم الحجة الكاملة البالغة عليهم، ولا يوجد عذر لأحد بلَغُه القرآن لكي يدعي بأنه لم يكن يعرف تلك الحقائق:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكُم بِهِ مِن بَلَغٍ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

ولقد ورد مشهد البداية والنهاية في العديد من آيات القرآن، وتم عرض بعض تفاصيله ليتذكر جميع بني آدم العهد الأول مع الله، ويحذروا من يوم اللقاء والسؤال عن هذا العهد..

ولئن كنا في الدنيا نعبد الله بالغيب ولا نتذكر ما حدث في المشهد العظيم والعهد الأول؛ ولئن كنا لم نتقل - بعد - إلى عالم الشهادة، ولم يُنفخ في الصور، ولم يبدأ الحساب؛ إلا أن القرآن الحكيم حاضر بيننا ينذرنا بهذا كله ويكرره بأساليب مختلفة:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

[الإسراء: ٤١].

فمن تلك الآيات التي بيّنت بعض ما حدث في مشهد البداية، وبماذا أخبر الله - عز وجل - بني آدم جميعاً قبل نزولهم إلى الأرض:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

أَفَنُكَلِّمُهُمْ كَمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

- ﴿يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْنَىٰ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الشَّيْطَانِ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ

يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا

إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ

إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[الأعراف: ٢٧].

- ﴿يَبْنِي آدَمَ إِنَّمَا يَتَّبِعُكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونُ عَلَيْكُمْ عَائِدِي

فَعَمِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[الأعراف: ٣٥، ٣٦].

.. ومن الآيات التي تجربنا بمشهد النهاية وما فيه من خطاب

لبنى آدم: ﴿لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ [يس: ٦٠ - ٦٤].

يا حسرة على العباد:

ستكشف أحداث يوم القيامة كم ظلمنا أنفسنا حين لم نحفظ
الأمانة والعهد..

.. سيتملك الغافلين والمعرضين الخزي والندم على هذا التفريط،

وسيزداد خزيهم كلما اكتشفوا أن الله عز وجل لم يكن يريد لهم هذا
المصير.. بل كان يدعوهم دومًا للعودة إليه ليغفر لهم ويرحمهم:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿يَدْعُوكُمْ لِغَفَرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي يوم القيامة سيتأكد ويتأكد هذا المعنى:

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ

وَرَأَوْا الْعَذَابَ

لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [الفصل: ٦٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ... لو أنهم كانوا يهتدون لما حدث لهم ذلك...

فعقاب الله -عز وجل- للمكذبين كان بعد عنادهم وإصرارهم على المضي قدماً في كفرهم، وإغلاقهم للباب الذي بينهم وبين ربهم، وإصرارهم على التولي عنه، وعدم الالتفات نحو الدعوة إلى مغفرته..

ومثال ذلك ما حدث من أصحاب القرية في سورة (يس) الذين كذبوا المرسلين وأصروا على هذا التكذيب والإعراض فحق عليهم العقاب، ليأتي التعقيب القرآني في نهاية قصتهم بقوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] فالله -عز وجل- لا يرضى لعباده الكفر، ويريد لهم الخير، ولكنهم هم الذين لا يريدون الخير لأنفسهم، ولم يتففعوا بحلم الله وستره وإمهاله لهم..

استجيبوا لربكم

أخي: تخيّل هول المفاجأة والصدمة علينا حين نكتشف هذا كله عند الموت... نعم؛ فعند الموت ينكشف الغطاء، ونخلع رداء الدنيا بأسبابها وما اكتسبناه فيها، ونعود كما بدأنا: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

عند الموت نتمنى الرجوع إلى الدنيا لتنفيذ العهد والميثاق:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝١٩﴾

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۝ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وفي القيامة... يوم العودة والسؤال تكون الكلمة المشتركة بين

أغلب البشر: يا ليتني.. ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ لَهَا خَالِدًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا﴾ [النبا: ٤٠].

﴿يَلَيْتَنِي لَوُ اتَّكَتَبْتُ﴾ [الحاقة: ٢٥].

أمر مرعب ... لُطفكَ يارب ... رحمتك ... يارب ... أنر
 بصيرتنا، وأيقظ قلوبنا، قبل فوات الأوان، أرنا الدنيا على حقيقتها،
 واجعل هذه الكلمات حجة لنا لا علينا:

﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَكُمْ مِنْ
 مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

الفهرس

٣	رحلة الحياة
٦	بداية الرحلة
٩	القطار
١٠	البداية
١١	العرض والقبول
١٣	الرب الودود
١٨	العهد والعقد والميثاق
٢٠	طبيعة الاختبار
٢٦	وظيفة الرسل
٢٩	القرآن والتذكير بالعهد الأول
٣٥	التزول إلى الأرض
٣٧	عند الموت تنكشف الحقيقة
٤٠	كشف الغطاء
٤٢	القدوم على الله
٤٨	النهاية

- ٤٨ يوم الحشر
- ٥١ الغضب الإلهي
- ٥٤ هل هناك فداء؟!
- ٥٥ الضعفاء
- ٥٩ لم كل هذا العذاب الأليم؟!
- ٦١ فتستجيون بحمده
- ٦٤ التلاؤم
- ٦٧ بين البداية والنهاية
- ٦٩ يا حسرة على العباد
- ٧١ استجيبوا لربكم
- ٧٣ الفهرس

